دواء الأرواح

لامام التصوف أبو القاسم الجنيد

الامام أبو القاسم الجنيد ، سيد الطائفة ، وشيخ التصوف وحجته ، اليه انتهى علم المعرفة الصوفية ، واليه ينتسب الأئمة الكبار ، ومن مريديه وتلامذته ، كان النجوم الذين اضاؤا افق التصوف ، وكونوا مدرسته الكبرى ، التى قادت العالم الاسلامى ، الى الربانية المشرقة المهتدية باذن ربها .

وللامام الجنيد رسائل فى المعرفة الصوفية العليا ، لم تطبع مع جلالها ومكانتها ،ومع انها ثروة عظمى فى المنهج الصوفى علما وسلوكا .

ومن منهج « مجلة الاسلام والتصوف » فى عامها الثانى أن تجعل من صفحاتها منذا ومعرضا لتراثنا القديم ، وكنوزنا المخطوطة حتى تسهم بهذا فى نشر حقائق التصوف الكبرى من منابعها الأصيلة وباقلام الاعلام الذين قعدوا قواعد التصوف ، وصاغوا معارفه وعلومه .

ونحن فى هذا العدد نقدم لقرائنا جوهرة كريمة من جواهر الامام الجنيد لم يسبق نشرها ، بعنوان « دواء الأرواح » وهى احدى مخطوطات مكتبة الازهر برقم ـ ٩٥٦ : حليم : ورقمها العام « ٣٣٥٩٠ » .

والرسالة تتحدث عن أهل المعرفة والبرهان الذين أبان الله لهم ، وعلمهم وهداهم فى عالم الذر ، وجعلهم أهلا لتوحيده ، وأفراد تجريده ، أهل المعرفة الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واصطفاهم على عينه ، وألقى عليهم محبة منه .

وفى الرسالة تجلية مبينة مبصرة لمقام رسولنا صلوات الله وسلامه عليه فى ليلة الاسراء والمعراج ، حيث أوحى الله لرسوله وحبيبه وصفوة خلقه ما أوحى ، بالافق الأعلى ، مقارنا بموقف موسى عليه السلام ، حينما نودى ، وحينما طلب الرؤية الكبرى ، فدك الجبل وصعق موسى :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الاعانة

الحمد لله الذى أبان بواضح البرهان ، لأهل المعرفة والبيان ، بما أخصهم به فى قديم القدم ، قبل كون القبل ، حين لا حين ولا حيث ، ولا كيف ولا أين ، ان جعلهم أهلا لتوحيده ، وأفراد تجريده ، والذابين عن أداء ادراك تحديده ، مصطنعين لنفسه ، والمصنوع على عينه ، والملقى عليه محبة منه ، واصطنعتك لنفسى ، ولتصنع على عينى ، وألقيت عليك محبة منى ، وأخذ أوصاف من صنعه لنفسه ، والمصنوع على عينه ، والملقى عليه محبة منه له ،

أن يستقر له قدم علم على مكان ، ولا موافقة عقل على استقرار فهم ولا مناظرة عزم على تنفيذهم ، وهم الذين جرت بهم المعرفة بحيث جرى بهم العلم الى لا نهاية غاية خنست العقول وبارت الأذهان وانحصرت المعارف ، وانقرضت الدهور ، وتاهت الحيرة فى الحيرة ، عند نعت أول قدم نقلت الموافقة وصف محل لمحة فما جرت عليهم به العلوم التى جعلها لهم بذله هيهات ذلك له ما له به عنده فأين تذهبون اما سمعت علم ظنه لما أبداه ، وكشفه لما واراه ، واختصاصه لسر الوحى لمن اصطفاه ، أوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، فى الأفق الأعلى ، شهد له انه عبده وحده لم يجد عليه استعباد الغير بخفى ميل همة ، ولا الام شهوة ، ولا محادثة نظرة ، ولا معارضة خطرة ، ولا سبق حق بلفظة، ولا سبق أهل الحق بنطقة ولا رؤية حظ بلمحة ، أوحى الله اليه حينئذ ما أوحى ، بالأفق الأعلى، ضاقت الأماكن وخنست المصنوعات ، عن أن يجرى فيها أو عليها وحى ما أوتى بالأفق الأعلى اذ يغشى السدرة ما يغشى ، نظر من جلاله نظرة من غير منظورة الى السدرة ، حيث غشاها ما غشى فتست لما غشاها ، وانظر الى الجبل حيث تجلى له جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك ، تبت اليك انى أعود لمسالتك الروية ، بعد هذا المقام الى اكثاره ما فرط من سؤاله ان العلم لو صادف حقيقة وقت المسالة لم يكن القول سابغا يليق به وفى هذا المكان علم ليس حقه الرسم ، ولا يليق به الكتم ، وانظر الى أخباره عن حبيبه صلى الله عليه وسلم ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى المقيد ها هنا هـ هـ لا يقتضى مكانا ، انما يقتضى وقت كشف علم الوقت ، فانظر الى فضل الوقتين ومختلف المكانين ، وفرق ما بين المنزلتين ، فى العلو والدنو ، وكذلك فضلت المؤمنين من العارفين منها ما يطيق خطاب المناجاة مع علم قرب من ناجاه وأدناه فلا ستره فى الدنو علم الدنو ، ولا فى العلو علم العلو ، ومنها ما لا يطيق ذلك فيجعل الأسباب هى المؤدية اليه وبها يستدرك فهم الخطاب فيكون منه الجواب ولا تقف عند قوله « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء » وهذه أماكن يضيق بسط العلم فيها الا عند المفاوضة لأهل المجاورة وفن الاشتغال بعلم مسالك الطرقات المؤدية الى علوم أهل الخالصة الذين خلو من خلواتهم وتبرأوا من ارادتهم ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وعصفت بهم رياح الفطنة فأوردتهم على بحار الحكمة ، فاستبطنوا صفو ماء الحياة لا يحذرون ولا يتوقعون نازلة ولا يسرعون الى طلب بلوغ غاية ، بل الغايات لهم بدايات ، هم الذين ظهروا فى باطن الخلق وبطنوا فى ظواهرهم ، أمناء على وحيه حافظون لسره ، نافذون لأمره ، قائلون لحقه ، عاملون ومسارعون فى الخيرات ، وهم لها سابقون جرت معاملتهم فى مبادىء أمورهم بحسن الأدب فيما ألزمهم القيام به من حقوقهم ، لم يبق عندهم نصيحة الا بذلوها ولا قربة الا وطئوها ، سمحت نفوسهم ببذل

المهج عند أول حق من حقوقه فى طلب الوسيلة اليه ، وبادرت غير مبقية ولا مستبقية ، بل نظرت الى أن الذى عليهـــا فى حين بذلها أكثر مما له بذلت لوائح الحق اليها مشيرة ، وعلوم الحق لديها غزيرة ، لا توقفهم لائمة عند نازلة ، ولا تثبطهم رهبة عند قادحة ، ولا تبعثهم رغبة عند احـدى هبة حافظون بما استحفظوا من كتاب الله عز وجل وكانوا عليه شـهداء ان عرج لهم اللجا عند القيام طلب الاســـتعانة لاتمام ما قد رأوه ولم بتحنسهم المناصحة الاصغاء الى محادثتهم ما يثبت منهم بقية حياة موجودة اشفاقا من دخول الوهم مع وجود العلم بواجب الحقوق الى حقوقها ترك التوقف عن استقبال التأيدة فى حين الأمر بالسعى ليكون الفعل عقيبا للأمر بلا فصـل محدود يعلم فى غير صفة الأمر به وهذه صـفات أهل الموالاة من أهل المصافاة الدائم نظرهم الى ما يجرى بهم القول مما ألزم حق العبودية فى الرهبانيـــة التى وقع الذم لمن التزمها ولم يقم بواجب حقها بترك رعايتها فسبقت نفوس العـاملين الى ما لهم بعلمهم فاحتجـوا برؤية مالهم بعلمهم ، عما لهم بعلم علمهم عما لهم ، فالانعام عليهم بكشف علم علمهم فتكاثفت الحجب فأقاموا تحت التغطية هـ وبعد الخروج من هذه الأماكن تبدوا علوم كشف التغطية « لقد كنت فى غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حـديد » وقف على حدود الأشـــياء تكشف الآثار بهالها ما ألبسها من نور الصنعة وزهدة الارادة بنفاذ القـــدرة على جمعها وتفريقها ومجاريها وتحقيقها ولا يؤوده حفظها وهو العلى العظيم لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ٠

تمت بعون الله تعالى

مقـام الذكر

روى الامام أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم فى مســـتدركه والبيهقى عن ابى الدرداء ، عن معاذ عن النبى ٠ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الا أخبركم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم وارفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من انفاق الذهب والفضة ، ومن ان تلقوا عدوكم فتضربوا اعناقهم ، ويضربوا اعناقكم ، قالوا بلى يا رسول الله ٠ قال : ذكر الله عز وجل »